علاقة قبائل أولاد نايل بالسلطة العثمانية في الجزائر
من خلال كتاب رحلة الباي محمد الكبير

Ouled Nails'relations with the Ottoman authorities in Algeria Through Mohammed el kebir Bey travel's

د. الشافعي درويش

chafaiderouiche@yahoo.fr

جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2020/05/18 تاريخ القبول للنشر: 2020/07/02 تاريخ النشر: 2020/07/03

ملخص:

تتميز الجزائر عموما بتنوع أجناسها وقبائلها المتجذرة عبر العصور التاريخية ،وهذا عبر كل ربوعها من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ،وفي هذا المقال اخص منطقة هامة وهي منطقة تواجد قبائل أولاد نايل وربوعهم ،والتي تصل بين شمال الإيالة الجزائرية وجنوبها .ونظرا للموقع المتميز لهذه الربوع ،فقد أولت السلطة العثمانية لمنطقة قبائل أولاد نايل أهمية كبيرة نظرا لدورها المتميز وأهميتها الاستراتيجية .

فقد حاولت أن اسلط الدراسة من خلال هذا المقال على جزئية هامة من تاريخ أولاد نايل ،وهي مسألة علاقات قبائل أولاد نايل بالعثمانيين ،أي تلك العلاقات بين أولاد نايل وسلطة إيالة الجزائر خلال الفترة الحديثة من خلال ما كتبته كتب الرحلات .وهذا يعود في الحقيقة إلى أسباب ذاتية قوية وأخرى موضوعية ؛أما الموضوعية فتتمثل في أهمية الدور الذي لعبته قبائل أولاد نايل وعلاقتها بالعثمانيين ،والعوامل التي تحكمت فيها ،وطبيعة تلك العلاقة ،وعن أهمية كتب الرحلات كمصادر هامة لتاريخ أولاد نايل عموما ،وعلاقتهم بالسلطة العثمانية على وجه الخصوص .

الكلمات المفتاحية :

أولاد نايل – العثمانيون – طرق التجارة – القبائل الجزائرية– الجنوب الجزائري – الباي محمد الكبير .

Abstract

Ouled Nails'relations with the Ottoman authorities in Algeria Through Mohammed el kebir Bey travel's

Algeria is generally characterized by its diversity of races and tribes, which are rooted throughout the historical ages, all across from north to south and from east to west. This is the most important area of the Ouled Nail tribes, which is located between the north and south of the Algerian. the Ottoman authority of the Nail Tribal Areas gave great importance to its outstanding role and strategic importance.

I tried to impose the study through this intervention on an important part of the history of the children of Nail, which is the relationship between the tribes of the Nile children of the Ottomans, that is the relationship between the children of Nail and the authority of Algeria during the recent period through the books written tours. The importance of the role played by the tribes of the Ouled Nail tribes and their relationship with the Ottomans, the factors that governed them, the nature of that relationship, and the importance of travel books as important sources for the history of the Ouled Nail in general, and their relationship with the Ottoman authority in particular.

key words :

Ouled Nail –the Ottomans - Algeria – Ways of trade – Algerian tribes - the Algerian south- Mohammed el kebir Bey .

مقدمة :

ركَّز المؤرخون سواء منهم المحليون أو الأجانب كثيرا على تاريخ الجزائر خلال العصور المختلفة ،بمختلف جوانبه .لأغراض معينة ومتباينة من فئة إلى أخرى ،لكنهم من جهة أخرى أهملوا الكثير عن جوانب أخرى من هذا التاريخ .ويدخل في هذا الإطار تاريخ بعض القبائل الجزائرية ،التي لها ثقلها الديموغرافي ،والاجتماعي والتاريخي ،ونقصد هنا في هذا المقال قبائل أولاد نايل .والتي أهملتها الدراسات التاريخية وخصوصا المحلية ،على الرغم من تناولها من بعض الدارسين غير المتخصصين ،وعلى وجه الخصوص

الفرنسيين منهم ،في إطار مسحهم لخريطة الجزائر اثنيا وطبيعيا وجيولوجيا ،منذ دخولهم الأرض الجزائرية ،وهذا في إطار توسيع المشروع الاستعماري .

وعلى الرغم من ذلك ومن طبيعة تلك الدراسات ،إلا أنه لا يمكن إهمالها ،بل تعتبر حقيقة من المصادر الرئيسية لتاريخ أولاد نايل ،وخاصة خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة الاستعمارية .

ومن بين الكتابات المحلية التي تناولت تاريخ أولاد نايل وربوعهم ومضاربهم ،نجد كتب الرحلات باختلاف أنواعها ،سواء الرحلات المغاربية الحجازية ،أو الرحلات العسكرية ،أو الرحلات الاستكشافية الأوربية ،وتعتبر هذه الكتابات بمثابة مصادر أساسية لتاريخ أولاد نايل ،لأنها ضمت معلومات دقيقة حول مختلف جوانب حياتهم ،وخاصة الجانب الاجتماعي منها .إلا أن هذه الرحلات لم تتكلم كثيرا إن لم نقل مطلقا عن الجانب السياسي من حياة هذه القبائل ،وخاصة جزئية مهمة وهي علاقة هذه القبائل الثائرة بالسلطة الحاكمة ،خلال الفترة الحديثة من تاريخ الجزائر ،ونقصد كيفية تعامل السلطة العثمانية في الجزائر معهم ،وكيفية تعاملهم معها هم كذلك .

وسأحاول في هذا المقال على الرغم من شح المادة التاريخية ؛اقصد كتب الرحلات ،التي تكلمت عن علاقة العثمانيين بأولاد نايل (**هناك رحلة واحدة حسب علمي وهي رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري لمؤلفها ابن هطال التلمساني**)،أن أغامر لعلي أفيد بعض القراء ،أو أفتح بابا للبحث ،أعلم أنه سبقني إليه الكثير ،لكني أريد إضافة ولو الشيء القليل ،لأثير نخوة علمية من أجل دراسة علمية جادة ودقيقة لمثل هذه المواضيع ،المحلية ،والتي من خلالها يبنى التاريخ العام لجزائرنا الحبيبة .دون إقصاء أو تهميش طرف أو آخر من ربوع هذا البلد الحبيب .

لهذا سأحاول أن استنتج طبيعة تلك العلاقة ،التي قامت بين قبائل أولاد نايل والسلطة العثمانية ،من خلال احدى الرحلات ،وهي **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري لمؤلفها ابن هطال التلمساني**) .التي تطرق صاحبها بن هطال التلمساني

،وهي في الحقيقة رحلة عسكرية ،الهدف منها التأريخ لشخص الباي محمد الكبير ،صاحب الإنجازات العلمية والعمرانية والعسكرية الكبيرة .وبطبيعة الحال الرحلة لم يتطرق صاحبها إلا لمناطق محدودة من مضارب أولاد نايل ،لأنها لم تكن في الأصل موجهة اليهم بالذات .

إشكالية المقال :

تطرح عدة تساؤلات حول الموضوع ،أدرج أهمها في ما يلي :ما طبيعة العلاقة بين قبائل أولاد نايل والسلطة العثمانية في الجزائر ؟وما هي العوامل التي تحكمت في تلك العلاقات ؟وماهي انعكاسات تلك العلاقات وأثرها على الجزائر وعلى الطرفين ؟.

عناصر المقال :

- **أهم مصادر تاريخ أولاد نايل .**
- **بعض كتب الرحلات التي تناولت تاريخ أولاد نايل خلال العصر الحديث .**
- **التعريف بقبائل أولاد نايل .**
- **مواطن قبائل أولاد نايل في الجزائر .**
- **علاقة أولاد نايل بالسلطة العثمانية من خلال رحلة الباي محمد الكبير 1785م .**

1- أهم مصادر تاريخ أولاد نايل :

تجدر الإشارة كما ذكرت سالفا أن المادة التاريخية المتعلقة بموضوع قبائل أولاد نايل ،قليلة إن لم نقل شحيحة تكاد تكون منعدمة ،باستثناء بعض الكتابات الغير متخصصة ،والتي هي بحد ذاتها أساسية حول تاريخ هذه المجموعة الإثنية الهامة في الجزائر ،وخاصة خلال العصور الحديثة والمعاصرة .ولعل من لهمها :

- بعض كتب الرحلات التي تناولت تاريخ أولاد نايل .

- بعض المقالات المنشورة في المجلة الإفريقية لكتاب فرنسيين la Revue Africaine.
- كتاب للأب الفرنسي الذي عاش في مدينة الجلفة خلال الفترة الاستعمارية والمعروف بعبد الرحمان. وهو الأب فرونسوا دو فيلاري .
- كتاب من أربعة أجزاء لأحد أئمة الجلفة حول تاريخ أولاد نايل وهو الشيخ قويسم الميلود.
- بعض الدراسات الأكاديمية والكتب الحديثة لكتاب من تخصصات مختلفة .

2- بعض كتب الرحلات التي تناولت تاريخ أولاد نايل :

تناولت الكثير من كتب الرحلات قبائل أولاد نايل ،فقد أشار عدد كبير من الرحالة الذين مروا بمضارب أولاد نايل ،صفات ومميزات وخصال هذه القبائل ،ومواطنهم ومناطق انتشارهم وترحالهم ،ونمط حياتهم وعلاقاتهم مع الحكام والسلط التي عاصروها ،ومن بين تلك الرحلات نذكر فترة العهد العثماني ،فقد دوّن كثير من الرحالة معلومات هامة عن تلك القبائل ،ومنها الرحلات المغاربية والرحلات الحجازية والرحلات العسكرية والاستكشافية غيرها .وفي هذا الاطار سنذكر البعض منها :

1.2- رحلة ابن زاكور الفاسي المتوفي (1120هـ/1708م) :

هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الفاسي ،أديب ورحالة وشاعر ولد بفاس في سنة 1075هـ /1663م ،وتوفي بها في سنة 1120هـ/1708م .تعلم على يد علماء تطوان ،ثم انتقل إلى الجزائر في سنة 1683م ،وأجازه علماؤها ،منهم محمد بن سعيد قدورة ،الذي أجازه في رحلته في سنة 1684م ،والمسماة **نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان** [1].

وقد تعرض هذا الرحالة إلى قبائل أولاد نايل بوصفهم ،وسماهم بعرب النوايل ،وبني نايل ،وحدد ابن زاكور مضارب في الجزائر أولاد نايل بدقة ،ومدح خصالهم ونسبهم

ونظافتهم ،ومعاملتهم للعلماء ،ومميّزهم عن غيرهم من القبائل العربية ،ووصف طريقة عيشهم في الخيام [2].

ومما ذكره ابن زاكور قوله : ((... **وهم اكثر قبائل العرب رجالا وماشية وخيلا ،ومساكنهم ما بين مدينة قسنطينة والجزائر وبوسعادة وواد الجريد امزاب ووركلة (ورقلة) ولقرارة ،ونعم العرب هم – كثّر الله في عرب المسلمين من أمثالهم – وهم أهل بيت الرحمة ،ما رأيت ولا سمعت من يعظم العلماء وحمّالة القرآن مثلهم ... وليسوا مثل عرب أحميان (حميان) أو ذوي منيع أو غيرهم من العرب في قلة الدين والنظافة ،بل هم الغاية في ذلك ،أهل وضوء وصلاة وزكاة ورحمة ،وابلهم كلها حمراء الشعر سوداء الأظافر**)) [3].

وأضاف في تحديد مضارب قبائل أولاد نايل بقوله : ((**وفي السادس والعشرين من رمضان وصلنا جبل الصحاري وفيه منازل بني نايل ،وهذا الجبل ما رأيت مثل طوله وكثرة أشجاره وطولها ،وفيه الأنهار المطردة والطيور المغردة ،وفيه يوجد القرمز الجيد الكثير ،وأقمنا في خيام أصحاب رفقتنا بني نايل يومين**)) [4].

2.2- رحلة الباي محمد الكبير 1785م :

صاحب الرحلة هو العباس الحاج احمد بن محمد بن محمد بن علي بن احمد بن هطال التلمساني ،كان مستشارا للباي محمد الكبير ومبعوثا له في المهمات الخارجية ،منها مهمتين قام بهما إلى المغرب وإنجلترا لشراء الأسلحة أثناء فتحه وهران .وظل ابن هطال في منصبه في عهد ابنه عثمان باي ،ثم في عهد الباي مصطفى بن عبد الله العجمي .قتل ابن هطال في معركة بين قوات العثمانيين وابن الشريف الدرقاوي في سنة 1219هـ ورحلته المسماة **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري 1785** [5].

3 - التعريف بقبائل أولاد نايل :

الرحل هم قوم يعيشون أساسا على الرعي ،وخصوصا رعي الجمال والأغنام والماعز ،وحينما تأتي الحيوانات على ما في المرعى من العشب ،يكون الأوان قد حان ؛لكي تنتقل القبيلة للبحث عن مرعى اخصب واجدى ،ولكن الرحل لا يهيمون على وجوههم في البحث عن مرعى جديد ،تاركين مقودهم لمجرد الصدفة .فهم لا يخرجون من المنطقة الواسعة التي امتدت فيها جذورهم ،والتي ينتمون إليها روحيا واجتماعيا .والهجرة من المنطقة التي استوطنوها ،لا يقوم بها الرحل إلا عند الضرورة القصوى ،وفي حالة القحط الشديد ،وحينئذ تتخذ الهجرة شكلا اجتماعيا ،فيتجه الرحل إلى مناطق بعيدة [6].

وقد قسم الباحث الألماني بول جير هارد ميرنر P.G.Merner في كتابه :عن الرحل في شمال أفريقية (**الرحل**) ،إلى أربع فئات أساسية هي :رحل الهضاب (**بما فيهم أولاد نايل**) ،ورحل الصحراء ،وأشباه الرحل ،ورحل الجبال .والخاصية التي تشترك فيها جميع فئات الرحل ،انهم يعيشون جميعا في نظام اقتصادي ،يقوم أساسا على تربية الحيوانات ،وينتجعون مناطق الرعي تبعا لما تمليه ظروف الطقس وتوفر العشب والماء [7].

أما رحل الهضاب (وهم الفئة التي نريد دراستها) ،فيقيمون في المناطق الواقعة جنوب الأطلس الصحراوي في الشتاء والربيع ،حين تهطل كميات كافية من الأمطار في هذين الفصلين ،وأما في فصلي الصيف والخريف ،فهم مضطرون إلى التنقل في اتجاه الشمال ،حتى يصلوا في كثير من الأحيان إلى التل [8].

وهناك مجموعة من الكتب والدراسات ،التي تطرقت إلى نسب سيدي نايل ،وهذه الكتب بدورها اعتمدت على مدونات قديمة ،أجمعت كلها على نسب سيدي نايل الشريف ،وقد تطرقت هذه المدونات إلى شجرة النسب الشريف لسيدي نايل [9].

كما أن التقارير التي قام بها الفرنسيون عند غزوهم للجزائر ،والتي انتهت إلى النسب الشريف لسيدي نايل ،وأثبتت النسب الشريف لمحمد سيدي نايل بن عبد الله الخرشفي المشيشي الحسني ،من خلال مصادر كثيرة من مصر والحجاز ،والشام وتركيا وتونس والمغرب [10].

ومن تلك المصادر على سبيل المثال لا الحصر نذكر منها :

- الإمام الشريف احمد الشباني في كتابه :مصابيح البشرية في أنباء خبر البرية .
- العلامة أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي في مخطوطه :أئمة الأبصار في الاختصاص بذكر الشرفاء الأخيار .
- الإمام احمد بن محمد العشماوي في رسالته :السلسلة الوافية والياقوتة الصافية في انساب أهل البيت المطهر .

وهناك مصادر ومؤلفات أخرى كثيرة لا يمكن إحصاؤها كلها [11].

وتشير بعض الروايات إلى أن سيدي نايل أي محمد بن عبد الله الخرشفي ، ولد في الساقية الحمراء ولما اشتد عوده خرج باحثا عن العلم والحكمة والثروة .وكانت أول محطاته في مليانة بالقطر الجزائري أين تتلمذ على يد الشيخ سيدي احمد بن يوسف ،وبقي عنده بضع سنوات وكان خلالها تلميذا مثاليا .وبعد أن امتحنه شيخه نال إعجابه ودعا له بالبركة والعلم والحماية وكثرة الولد ،وان تكون السماء غطاءهم والأرض فراشهم وان تكون وجوههم وقلوبهم صافية وان يمكنهم قيادة الرجال كما تقاد الخراف .ومن ثم لقب محمد بن عبد الله بلقب نايل لأنه نال بركة الشيخ ودعوته الصالحة .وبعد ذلك أمره الشيخ بالتوجه إلى الجنوب فامتثل لأمره ووصل إلى عين الريش ،وحسب هذه الرواية تكون الواقعة قد حدثت مع بداية القرن 16م ،وتحديدا بين سنتي 1509م ،و1524م ،لأن الشيخ سيدي احمد بن يوسف توفي في سنة 1524م [12].

وهناك روايات كثيرة مختلفة حول أبناء سيدي نايل ،الذين تكاثروا وتكونت منهم قبائل أولاد نائل فيما بعد ،كأولاد زكري الذين أقاموا حول أولاد جلال .وأولاد يحي الذين بقوا حول عين الريش ثم تفرقوا بعد حين ،وأولاد فرج بقوا شمال عين الريش ،وأولاد عيسى الذين بحثوا عن مناطق توسع جديدة نحو الغرب من عين الريش ،أما أبناء مليك فقد انتشروا في زاغز [13].وقد انحدرت عن سيدي نايل قبائل اليوم هم :أولاد سيدي

محمد ،أولاد عيسى ،أولاد سعد بن سالم ،أولاد فرج ،أولاد عامر ،أولاد زكري (أولاد حركات ،أولاد ساسي ،أولاد رابح) [14]. حسب بعض الكتابات المعاصرة .

4- مواطن قبائل أولاد نايل في الجزائر :

استقر سيدي نايل بداية في منطقة عين الريش ،ومن ثم بدأ أبناؤه وأحفاده ؛أي قبائل أولاد نايل في التوسع ،ومن خلال تسمية المنطقة يظهر أنها عبارة عن عين للمياه ،ثم توغلوا في سهل فيض البطمة .وقد عرفت هذه القبائل بأولاد عيسى الغرابة ،بينما فرع منهم عرفوا بأولاد نايل الشراقة بقوا شمال عين الريش ،وهؤلاء سيستقرون حول بوسعادة .أما أولاد عيسى الغرابة فقد احتموا بجبل قديد وجبل بوكحيل خوفا من غارات الأعداء ،ثم توجهوا إلى سهل مسعد الغني بالمياه والمراعي .وقد تفرعت عن أولاد عيسى الغرابة قبائل أولاد عيفة وقبائل أولاد أم الإخوة ،وهي تسميات لها تاريخها يصعب تفسيرها في هذا المقال .وبذلك يكون أولاد عيسى قد أقاموا موطنا لهم يمتد من عين الريش إلى الويصال ،ومن مسعد إلى المعلبة ،وتحالف معهم أبناء عمومتهم أولاد يحي بن سالم ،فوصلت حدود موطنهم إلى وادي جدي ،وبذلك أصبح الطريق أمامهم مفتوحا نحو الصحراء [15].

لقد كان الموقع الجغرافي لقبائل أولاد نايل استراتيجيا (أولاد عيسى ،أولاد سعد بن سالم ،أولاد يحي بن سالم ...الخ) ،فقد سيطروا على سهول فيض البطمة ،والمعلبة ،ووصلوا حتى حدود وادي جدي ،وكان عليهم تأمين طريق لتوسع مراعي مواشيهم شتاءا نحو الصحراء وتقرت ،بحثا عن الكلأ والماء .كما استوطنوا المناطق التي ماتزال إلى اليوم لأولاد سعد بن سالم ،والموجودة حاليا بين سهول زنينة (الإدريسية حاليا) ،ودمد ،مرورا بالقنطرة (الدويس ،عين الشهداء) ،وسهل عين الابل وحوض نثيلة ،وجزء من سهل مسعد [16].

ومما سبق يمكن القول :

إن موطن أولاد نايل يعتبر منطقة استراتيجية تتوفر على عيون مائية ومصادر كبيرة ،وسهول منبسطة صالحة للرعي ،من جهة أخرى فهي تؤمن لهذه القبائل التنقل بمواشيها بين رحلتين متتاليتين :

- رحلة في الشتاء والربيع نحو الصحراء .
- ورحلة في الصيف نحو الشمال أي التل .

وهذه المناطق يظهر من خلال تسمياتها ومميزاتها التضاريسية أنها غنية بالمياه مثل :(عين الريش ،عين الابل ،عين معبد ،عين الشهداء ،عين سلمانة ،وادي مسعد ،وادي جدي) ،كما أنها منبسطة وغنية من حيث نباتاتها مثل : (سهل زنينة ،سهل مسعد ،سهل عين الابل ،سهل تعظميت ،سهل انثيلة) .

5- علاقة أولاد نايل بالسلطة العثمانية من خلال بعض الكتابات :

لقد وضعت السلطة العثمانية قبائل جنوب التيطري بما فيها عروش الجلفة (أولاد نايل) ،تحت سلطة بايات التيطري المدية ،والذين كلفوا أساسا بجمع المغارم والضرائب المختلفة من هذه القبائل ،وكانوا يعينون شيخا عن كل عرش لهذا الغرض ،ونظرا لطبيعة عروش أولاد نايل ،التي تميزت بالحل والترحال المستمرين ،فإن العثمانيين لم يملكوا أي سلطة سياسية أو قضائية عليهم ،سوى جمع المغارم ،وغالبا ما كانت عروش أولاد نايل ترفض وتقوم بانتفاضات ،جعلت بايات التيطري يقومون بشن غارات في فصل الشتاء مغتنمين فرصة رجوع أولاد نايل إلى مضاربهم ،أو فرصة تجمعهم استعدادا للرحيل مرة أخرى[17].

وقد أشار حمدان بن عثمان خوجة إلى وجود قبائل رحل خلال العهد العثماني منهم قبائل أولاد نايل ،بقوله: ((**ينقسم سكان الأماكن المنخفضة والسهول إلى قسمين هما :أهل الصحراء الرملية ،واهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة**

الارتفاع ،والجميع من أصل عربي ،ويتكلمون اللغة العربية ،مسكنهم تحت الخيام وليس لهم مكان مستقر ،ينزلون حيث يجدون المرعى لماشيتهم)) [18].

وكانت قبائل أولاد نايل تخرج عن طاعة دايات الجزائر من الحين إلى الآخر ،عندما يتسنى لها ذلك ،لذلك تلجأ السلطة العثمانية إلى إرسال المحلة (القوة العسكرية) لتأديب تلك القبائل ،ومثال ذلك ما حدث في شهر أكتوبر من سنة 1773م ،عندما قام باي قسنطية صالح باي بحملة عسكرية ضد قبائل أولاد نايل ،والتي كانت قد شقت عصا الطاعة في وجه داي الجزائر ،على الرغم من أن هذه القبائل كانت تابعة إداريا لبايلك التيطري ،إلا أنها كانت تتردد في بعض الأحيان على سهول قسنطينة وأسواقها ،وقد حصل الباي على غنائم كبيرة بعد أن انتصر على أولاد نايل في معركة مالح أو مسيف ،وقد بعث إلى داي الجزائر بكثير من الغنائم مع ستين (60) رأسا وأربعمائة زوج أذن للعصاة الذين قضى عليهم ،وذلك ليظهر للداي مدى انتصاره على القبائل المتمردة بنواحي الجلفة وبوسعادة (اليوم) ،التابعة لبايلك التيطري [19].

وفي سنة 1775م تمكن الباي مصطفى الوزناجي ،من فرض سيطرته على قبائل أولاد نايل بفضل قوته وحنكته ،وبذلك حد من تحركاتهم ،وتمكن من مراقبتهم أثناء ترحالهم وضمن دفعهم للضرائب ،وعدم فرارهم [20]. لكن ذلك لا يؤكد استمرار السيطرة المباشرة على قبائل أولاد نايل .

6- علاقة أولاد نايل بالسلطة العثمانية من خلال رحلة الباي محمد الكبير:

في حين ورد في **رحلة الباي محمد الكبير** عن قبائل أولاد نايل ،التي قادها في سنة 1785م إلى الجنوب الجزائري في إطار ما يعرف **بالمحلة العثمانية** ،من أجل إخضاع القبائل والمناطق المتمردة عن السلطة العثمانية ،وقد مرت هذه المحلة ،والتي أرّخ لها ابن هطال التلمساني بمضارب أولاد نايل ،حيث أشار صاحب الرحلة إلى قبائل عربية بمواطنها ومضاربها ووصفها .وقد ورد فيها :

1.6- وصف بن هطال لأولاد نايل :

لقد وصف بن هطال في هذه الرحلة بعض مضارب أولاد نايل التي مرت بها رحلة الباي محمد الكبير ،ومما جاء في قوله :((... **والجبل الذي في قبلته يسمى الأخضر وفي طرف الأخضر من جهة الشرق قرية ،تسمى الشارف ،وحيث نزل هذا الموضع ذكرت له مدينة ،وهذه المدينة تسمى :زنينة ،قريبة من الدبداب بنحو أربعة سوائع** ...)) [21].

وأضاف صاحب رحلة محمد الكبير في حديثه مميزات وخصال قبائل أولاد نايل ،بأنهم أصحاب قوة وعزة ،وأنهم من القبائل العربية الرحل ،الذين لا يدينون لأحد بالولاء والطاعة .ومما جاء في قوله : ((... **وهي لبعض الأعراب الذين لا حكم عليهم لأحد ،وأهلها أصحاب قوة ،وعدة ،وعزة ...))** [22] .

كما وصف بن هطال في رحلة الباي محمد الكبير ،خيرات مدينة زنينة والتي نهبها الجنود العثمانيون ،عند دخولهم المدينة ،وهذا في حد ذاته يدل على مدى غنى وثراء قبائل أولاد نايل ،باعتبار سكان زنينة عيّنة منهم . ومما جاء في وصف صاحب الرحلة ما يلي : ((... **فانتهبت جميع ما فيها من القماش والغرائر والسمن وغير ذلك مما ترغب فيه النفوس .وقد وجد فيها من القمح والشعير مالا يحصى عدده إلا الله تعالي ،فحملت منه الناس شيئا كثيرا ،وأكثرهم يرغب في الشعير دون القمح .فتراهم يقتحمون المطامير ،فإن وجدوه شعيرا حملوا منه ما قدروا عليه ،وإن وجدوه قمحا يأخذوا منه شيئا** ...)) [23].

2.6- علاقة أولاد نايل بالسلطة العثمانية من خلال الرحلة :

يمكننا أن نستنتج عدة جوانب ومظاهر عن العلاقة ،التي كانت قائمة بين قبائل أولاد نايل والسلطة العثمانية ،التي كانت حاكمة في الجزائر في تلك الفترة ،وهذه المظاهر هي كالتالي :

أولا :

فقد في ورد في رحلة محمد الكبير بعض جوانب من علاقة قبائل أولاد نايل بالسلطة العثمانية ،فيما ذكره بن هطال ،عن ما سمعه الباي عند قدومه لمدينة زنينة ،من أن سكانها كانوا قد طردوا باي التيطري عندما قدم إليها ،في إحدى المرات ،وقتلوا له رجلين من اتباعه وأعادوه مهزوما ذليلا .ومما ذكره صاحب الرحلة : ((... **وقد ذكروا له أن باي تيطري نزل عليها فطردوه ،وقتلوا له رجلين ،وذهب مذموما مدحورا** ...)) [24]

.

ثانيا:

إصرار الباي محمد الكبير على معاقبة سكان مدينة زنينة ،بعدما سمعه عن علاقتهم بباي التيطري ،ومحاولة المشائخ الذين كانوا معه صرفه عنها لخوفهم على سكان المدينة ،وتأكيدهم له مدى طاعتهم له واستجابتهم لدفع ما وجب عليهم عرفانا على ولائهم له .ومما جاء في نص الرحلة : ((... **اشتد حرصه عليها ،وأراد النزول بقربها ،فراوده بعض من كان معه من المشائخ أن لا يذهب إليها ،وأن لا يكشف حريمها ... وهم مشتغلون في خدمتك ،وأنهم يجمعون خمسة وعشرين مملوكا ويقدمون به لحضرتك** ...)) [25] .

ثالثا:

رفض الباي محمد الكبير طاعة سكان مدينة زنينة لتطاولهم على الباي لار ،حسب ما جاء في نص الرحلة ،ومما ذكره صاحب الرحلة : ((... **فأبى عن خدمتهم ،ورغب عن طاعتهم ،ولم يرد إلا عقوبتهم لجسارتهم على الباي لار ،وأخذته الأنفة عليهم** ...)) [26].

رابعا :

ولكن أهل زنينة لما سمعوا بذلك خرجوا من المدينة وتركوها خاوية على عروشها ،خوفا من بطش العثمانيين ،نظرا لعدم توازن قوتهم مع قوة الحملة التي جاء بها الباي محمد الكبير ،وتركوا أموالهم وأقواتهم وخيرات المدينة ،والتي قام جنود الحملة بنهبها .ومما ذكره صاحب الرحلة بن هطال : ((... **فامر خليفته ومتولي خدمته في المفاخر السيد عبد الله أن يذهب إليها ،ويرجف بخيله وركابه عليها ،وحيث سمع كلامه نهض إليها ،وأخذ معه بعض العسكر .فلما رآه أهل تلك القرية علموا أنهم لا قدرة لهم ولا طاقة لملاقاته .فخرجوا منها بأجمعهم ،ولم يأخذوا شيئا من أمتعتهم وقوتهم ،وتركوها خاوية على عروشها ،أسيرة في يد ممقوتها** ...)) [27].

خامسا:

دخول جيش الباي محمد الكبير مدينة زينة دون حصار أو قتال ،ونهب جميع ما فيها من خيرات كالقماش والقمح والشعير والسمن .ومما وصفه صاحب الرحلة ما ذكره : ((... **فانتهبت جميع ما فيها من القماش والغرائر**[28] **والسمن وغير ذلك مما ترغب فيه النفوس .وقد وجد فيها من القمح والشعير مالا يحصى عدده إلا الله تعالي** ...)) [29].

ومما يدل على قوة الحملة الموجهة للمدينة ،ما جاء في الرحلة ،من وصف لتحقيق الباي للانتصار ،وهذا في حد ذاته يشير إلى قوة أولاد نايل ،لأن كثير من بايات التيطري في فترات سابقة ،كانت قواتهم تتكسر أمام قوة قبائل أولاد نايل .وقد ورد على لسان بن هطال قوله : ((... **وكرَّ راجعا لمحلته ،ظافرا بحاجته** ...)) [30].

وبذلك يمكن القول أن :

العثمانيون هم أول من حاول مراقبة ترحال قبائل أولاد نايل حتى يضمنوا ولاءها ،ودفع المغارم التي تستوجب عليها ،وقد خصصوا لذلك محلة خاصة كانت تقوم بهذا

العمل ،كما حاولوا وضع نوع من الاستقرار لتلك القبائل حتى لا تتحرك في مساحات واسعة في ترحالها بين الصحراء والتل .

ومازالت توجد حتى يومنا تسمية لمنطقة **ضاية المحلة** جنوب مدينة الجلفة ،تشير بعض الروايات أن المحلة العثمانية كانت تتوقف بها ،عند توجهها لجمع الضرائب من قبائل أولاد نايل .

الخاتمة :

يعد تاريخ أولاد نايل من المواضيع الهامة والممتعة ،والتي تشكل جزءا مهما من تاريخ الجزائر خلال العصرين الحديث والمعاصر ،نظرا للوزن الديمغرافي والثقل التاريخي والروحي لقبائل أولاد نايل .من جهة أخرى تجدر الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه أولاد نائل في الجزائر خلال الفترتين العثمانية والفرنسية ،وفي مرحلة الجزائر ما بعد الاستقلال والذي مازال مستمرا حتى يومنا .لذلك يمكن أن نستخلص بعض النتائج من هذه الدراسة القصيرة حول موضوع أولاد نايل ،وهي كالتالي

1- شح المصادر المتعلقة بتاريخ أولاد نايل ،خاصة في الفترة الحديثة أي الفترة العثمانية .

2- تبقى الكتابات الغربية ونقصد هنا الفرنسية ،ونحن نعي جيدا القصد من وراء تلك الكتابات ؛المصادر الأساسية لكتابة تاريخ أولاد نايل ،وهذه ميزة لا تخص أولاد نايل دون غيرهم ،فتاريخ الجزائر عموما يشترك في هذه الميزة .

3- نظرا للطابع القبلي والترحال المستمر لقبائل أولاد نايل ،تبقى الروايات الشفوية احدى المصادر الهامة لكتابة تاريخهم .

4- من المصادر التي لا يمكن إهمالها عند أية دراسة تخص تاريخ قبائل أولاد نايل ؛هي كتب الرحلات بمختلف أنواعها وفتراتها التاريخية ،وخاصة خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة ،ولكن تبقى هذه المصادر تخدم مواضيع معينة وفترات دون غيرها ،ولكنها تبقى أساسية .

5- وأيضا بالنسبة لكتب الرحلات رغم أهميتها كمصادر دونت لفترات عن تاريخ الجزائر عموما ،وتاريخ أولاد نايل مثل غيره من التواريخ ،تبقى كتب الرحلات شحيحة بالنسبة لموضوع كما هو الحال بالنسبة ،لتحديد العلاقة التي كانت قائمة بين السلطة العثمانية وقبائل أولاد نايل ،ذلك أنها لم تتطرق بشكل مباشر ودقيق أو أهملت الموضوع نهائيا .

6- لم يرضخ أولاد نايل نهائيا للسيطرة العثمانية وظلوا يثورون باستمرار ،وهذا نظرا لطبيعة ترحالهم التي تستوجب الحرية والتنقل بين المناطق بحثا عن الماء والكلأ .لذلك لم تستطع السلطة العثمانية تحديد مناطق تنقلهم ،نظرا لميزة الترحال ،التي هي من صميم حياتهم ونشاطهم الاقتصادي .

7- حاولت السلطة العثمانية فرض سيطرتها على قبائل أولاد نايل ،وهذا ما أكدته الكتابات المتوفرة لدينا ،وذلك من اجل تغريمهم وفرض الطاعة عليهم في الجزائر .

8- وقد حاولت السلطة العثمانية انتهاج سياسات متنوعة وشاملة من أجل تمزيق النسيج الاجتماعي والعسكري والقبلي لأولاد نايل ،بعد أن اكتشفت قوتهم ،لإضعافهم والحيلولة دون استمرارهم كقوة ثائرة وغير قابلة للطاعة .

- قامت السلطة العثمانية باتباع ربوع أولاد نايل ومضاربهم إداريا لسلطة باي التيطري ،ولكنهم لم ينسجموا مع هذا التنظيم ،لذلك ثاروا مرات عديدة ضد بايات التيطري .

9- قاد بايات التيطري عدة حملات تأديبية ضد قبائل أولاد نايل ،ومن اجل فرض ضرائب مالية عليهم ،وكانت المحلة العثمانية تقوم بذلك ،وحتى بايات الشرق والغرب قاموا بذلك .

10- ومن الحملات المشهورة حملة الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري ،الذي ذاع صيته في إيالة الجزائر وخارجها ،والذي قاد حملة عسكرية أرّخ لها كاتبه بن هطال التلمساني ،قادته إلى الجنوب الجزائري ،وكان لبعض مضارب أولاد نايل نصيب منها .

11- نستنتج أن قوة قبائل أولاد نايل وخيراتهم ومواشيهم ،جعلت السلطة العثمانية تنظر اليهم نظرة مختلفة ،لانهم حقيقة لم ينصاعوا في كثير من الأحيان لتلك السلطة

،وبالتالي تميزت علاقاتهم معها بالتوتر في كثير من الفترات خلال فترة حكمها في الجزائر ،وتجلى ذلك بوضوح في القرن الثامن عشر الميلادي (18م) ،بعد تقلص عائدات البحر على الحكام العثمانيين بالجزائر ،فتوجهوا إلى سياسة اقتصادية محلية ؛تقوم على فرض الضرائب على القبائل الجزائرية ،وخاصة غير الموالية والثائرة .

12- تدل هذه الحملة على أهمية ربوع أولاد نايل بالنسبة للعثمانيين في الجزائر ،ذلك أن مدينة زنينة التي دخلها محمد الكبير ونهب ثرواتها مثلت دليلا على الحملات العسكرية للعثمانيين ضد قبائل أولاد نايل ،وان الفرصة المواتية هي الاستقرار الذي ميزهم في هذه الحاضرة .حتى تكون عبرة لباقي قبائل أولاد نايل .

13- ولازالت إلى يومنا منطقة تقع جنوب مدينة الجلفة على بعد حوالي 20 كلم ،تسمى ضاية المحلة يعتقد أن المحلة العسكرية العثمانية ،كانت تتخذها احد مراكزها في رحلتها ،أثناء جمع الضرائب من قبائل أولاد نايل ،أو عندما تكون متوجهة إلى الجنوب ،أو في طريق عودتها منه متوجهة إلى عاصمة بايلك التيطري .

الهوامش:

(1) مولاي بلحميسي :**الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني** ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر 1891 ،ص 19 .

(2) ابن زاكور:**ثلاث رحلات مغاربية رحلة ابن زاكور الفاسي المتوفي (1120هـ-1708م)** ،تحقيق :مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع ،وزارة الثقافة ،الجزائر 2011 ،ص 242 .

(3) نفسه .

(4) نفسه .

(5) احمد بن هطال التلمساني : **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري 1785** ،تحرير وتقديم :محمد بن عبد الكريم ،دار السويدي للنشر والتوزيع ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط1 ،الامارات ،بيروت 2004 ،ص 15 ..

(6) إسماعيل العربي :**الصحراء الكبرى وشواطئها** ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1983 ،ص 36.

(7) المرجع نفسه ،ص ص 37-38.

(8) نفسه ،ص 39 .

(9) الطيب بن لخضر قرشي الغربي :**زهرة الخمائل في نسب أولاد سيدي نايل ومن جاورهم من الأشراف والقبائل** ،دار الخلدونية ،ط1 ،الجزائر 2016 ،ص ص 84-85.

(10) المرجع السابق نفسه ، ص 86 .

(11) نفسه ، ص87 .

(12) فرونسوا دو فيلاري :**السهوب عبر العهود (مرافئ لتاريخ الجلفة)** ،ترجمة :عيسى بن محمد بونوة ،مطبعة رويغي بالأغواط ،ط1 ،الجزائر 2015 ،ج1 ،ص ص 143 -145 .

(13) المرجع نفسه ،ص 162 .

(14) بن يوسف تلمساني :**التوغل الفرنسي في السهوب الوسطى وتخوم الصحراء –دراسة أرشيفية)– ،في الجلفة مسيرة كفاح 1830–1962** ،**في فعاليات الملتقى الوطني الأول** ،بجامعة زيان عاشور ،يومي 26/25 جوان 2013 الجلفة ، ص ص 15-45 .

(15) فرونسوا دو فيلاري :المرجع السابق ،ص ص 162-166 .

(16)) نفسه ،ص ص 169-170 .

(17) المولود الأمين قويسم :**المقاومة الصوفية للاحتلال بمنطقة الجلفة ،في الجلفة مسيرة كفاح 1830–1962** ،**في فعاليات الملتقى الوطني الأول** ،بجامعة زيان عاشور ،يومي 26/25 جوان 2013 الجلفة ، ص ص 73-74 .

(18) حمدان بن عثمان خوجة :**المرآة** ،ترجمة وتعليق :محمد العربي الزبيري ،منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والكتاب ،الجزائر 2005 ،ص 31 .

(19) ناصر الدين سعيدوني : **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني** ، ط2، دار البصائر، الجزائر 2009 ،ص ص 242 .

(20) فرونسوا دو فيلاري :المرجع السابق ،ص ص 162-166 .

(21) احمد بن هطال التلمساني :المصدر السابق ،ص 50 .ونظرا لأهمية رحلة الباي محمد الكبير ،فقد تطرق لها الفرنسيون بالدراسة ،ونشرت في العدد الثالث من المجلة الافريقية في سنة 1858م في مقال كان كالتالي :

M.Gorgous:**Expédition de Mohammed el kebir Bey de Mascara dans les contrées du Sud 1785** ,in **la Revue Africaine** ,A.jourdan .libraire-éditeur ,Alger 1858 , T03 , pp 52-61 .

والمقال الثاني مواصلة للمقال الأول .

M.Gorgous:**Expédition de Mohammed el kebir Bey de Mascara dans les contrées du Sud 1785** ,in **la Revue Africaine** ,A.jourdan .libraire-éditeur ,Alger 1858 , T03 , pp 185-192 .

(22) احمد بن هطال التلمساني :المصدر السابق ،ص 50 .

(23) نفسه .

(24) نفسه .

(25) نفسه .

(26) نفسه .

(27) نفسه .

(28) (يقصد بها أوعية الحبوب والمؤونة وهي تصنع من الصوف أو الوبر ،لازالت لوقت قريب تستعمل من طرف أولاد نايل الرحل ويسموها بلهجة القوم القراير مفردها قرارة .من الواقع المعاش ،(**شاهد عيان صاحب المقال**) .

(29) احمد بن هطال التلمساني :المصدر السابق ،ص 50 .

(30) نفسه .